

ألا تسمع نباح الكلاب ؟

— أنت الذي هناك فوق يا إغناثيو، قلّ لي اذا كنت تسمع علامة ما لشيء أو ترى ضوءا ما في مكان ما.

— لا أرى شيئا.

— قرنا الآن بلا شك

— نعم، ولكن أنا لا أسمع شيئا.

— انظر جيدا.

— لا أرى شيئا.

— يا لتعاستك يا إغناثيو !

واصل الظل الاسود للرجلين تحركه من الاعلى الى الاسفل، متسلقا الاحجار، متضاثلا ناميا في تقدمه وضفة الجدول. كان ظلا وحيدا، متايلا.

كان القمر خارجا من الأرض كقطعة هب مستديرة.

— نحن الآن قرنا بلا شك من تلك القرية يا إغناثيو، أنت الذي لا يغطي شيء

أذنك، حاول أن تسمع هل الكلاب تنبح أم لا. تذكر أنهم قالوا لنا «طونايا» وراء الجبل، ونحن تركنا الجبل وراءنا قبل ساعات. تذكر يا إغناثيو.

— نعم، ولكن لا أرى علامة لشيء.

— بدأت أتعب

— نزلني

أخذ المعجوز يتقهقر حتى مس الجدار المتهدم، وهناك أصلح وضع الحمل على كتفيه دون أن يطلقه. لم يكن يريد الجلوس، مع أن رجله كانتا تتشنجان، لأنه بعد ذلك لن يستطيع أن يرفع جسم ابنه الذي ساعده على ان يلقيه على ظهره قبل ساعات، هناك في المكان الذي تركاه وراءهما. وهكذا جاء به منذئذ.

— كيف أنت ؟

— مهلوك

لم يكن يتكلم كثيرا. كلامه كان يزداد قلة بعد كل لحظة. تارة كان يبدو أنه نائم. وتارة أنه يبرد. كان يترعد. هو كان يعرف متى تمسك الرعدة بولده من خلال الهزات التي

تصبيه بها ولأن قدميه كانتا تدخلان في جانبيه كمهماز. بعدئذ كانت يدا الابن اللتان تحيطان عنقه تحركان رأسه كما لو كان جليلا.

هو كان يضغط استانه كي لا يعرض لسانه، وعند انتهاء ذلك كان يسأله :
— هل يؤمك كثيرا ؟

فكان يجيب :

— قليلا

في البداية قال له : «نزلي هنا... خلني هنا... اذهب أنت وحدك. أنا الحق بك غدا أو لما أقوى قليلا». قال له هذا خمسين مرة تقريبا. الآن لم يعد يقول حتى هذا. هناك كان القمر. قبالهم. قمر كبير أحمر يملأ بالضوء عيونهما ويمد ظلهما على الأرض ويزيد ظلامه.

كان هو يقول :

— لا أرى الطريق الآن

لكن لم يكن يجيبه أحد.

الآخر كان هناك فوق، مضاء كله بالقمر، ووجهه الذي فقد الدم واللون يعكس ضوءا قائما. وكان هو هنا تحت.

— أسمع يا إغناثيو ؟ قلت لك لا أرى جيدا.

والآخر كان يبقى ساكنا.

واصل المشي، وهو يعثر. كان يتقلص ثم ينتصب ليعود يعثر من جديد.

— هذا ما هو طريق نباتا. قالوا لنا طونايا وراء الجبل. والجبل بقي وراءنا وطونايا لا نراها، ولا نسمع أي صوت يقول لنا هي قرية. لماذا لا تريد أن تقول لي إنك ترى، أنت الذي هناك فوق، يا إغناثيو ؟

— نزلي يا أبي.

— أتخس بالأم ؟

— نعم.

— سأذهب بك الى طونايا مهما كلفني الامر. هناك سأجد من يداويك. قالوا هناك

طبيب. سأخذك اليه. جئت بك محمولا منذ ساعات ولن أتركك مرميا هنا ليقنلك أي كلب.

ترغ قليلا. خطى خطوتين جانبيتين أو ثلاثا وعاد الى الانتصاب.

— سأذهب بك الى طونايا.

— نزلي.

صوته صار خافتا، كان مهموسا فقط :

— أريد أن أرقد قليلا.

— ثم هناك فوق. أنا أقيضك الآن جيداً.

كان القمر يصعد أزرق تقريباً في سماء صافية. وجه العجوز الذي بله العرق امتلاً بالضوء. أغمض عينيه لكي لا ينظر أمامه، فهو لم يكن يستطيع ان يخفي رأسه الممنوع من الحركة بين يدي ابنه.

— كل هذا الذي أعمله، لا أعمله من أجلكم، أعمله من أجل المرحومة أمكم، لأنكم كنتم ابنها، لذلك أعمله. هي كانت ستُعيرني لو كنت تركتكم مرميين هنالك، حيث وجدتمكم، ولو لم ألكم لأخذكم إلا حيث يداوونكم، كما أعمل الآن. إنها هي التي تشجعني، لا أنتم، أولاً لأنكم ما اعطيتموني غير مشاكل خالصة، عذاب خالص، عار خالص. كان يعرق أثناء الكلام. لكن ريح الليل كانت تبيس عرقه. وعلى العرق اليابس كان يعود يعرق.

— قد ينقسم ظهري، ولكن لا بد أن أصل بكم الى طوناي، لكي يداووا تلك الجروح التي أصابكم بها. أنا متأكد أنكم لما تحسون بالشفاء ستعودون الى خطواتكم المنحرفة. ذلك لا يهمني الآن. على أن تذهبوا بعيداً، حيث لن أعود الى سماع أخباركم، على أن تعملوا ذلك... لأنكم بالنسبة الي ما أنتم ابني الآن. أنا سخطت على دمي الذي يجري فيكم، المقدار الذي كان لي منه سخطت عليه، قلت : «ليعفن الدم الذي اعطيته أنا في كليتيه !» قلت هذا منذ أن عرفت أن أماكن حركتكم هي الطرقات، حيث تعيشون على السرقة وعلى قتل الناس... والناس الطيبين. والا، ها هو هناك صاحبي طرانكيلينو. الذي عمدكم أنتم. الذي سمأكم. هو كذلك صادفة سوء الحظ بالتقائه بكم، منذئذ قلت : «هذا لا يمكن أن يكون ابني»

— انظر لعلك ترى الآن شيئاً، أو تسمع شيئاً، أنت الذي تستطيع أن تعمل ذلك من هناك فوق، لأنني أحس أنني أصم.

— لا أرى شيئاً.

— هذا أسوأ لك يا إغناثيو.

— أنا عطشان.

— اصبر ! لا بد أننا قربنا. ولكن الظلام شديد ولا بد أنهم أطفأوا الضوء في القرية. لكن يجب على الأقل أن تسمع هل تنبح الكلاب. حاول أن تسمع.

— أعطني الماء

— هنا لا يوجد ماء. ما هنا غير الاحجار. اصبر. وحتى لو كان، لن أنزلك لشرب

ماء. لن يساعدني أحد على رفعك مرة أخرى، وأنا وحدي لا أقدر.

— أنا عطشان جداً، وأريد أن أنام.

— أتذكر لما ولدت. هكذا كنت في ذاك الوقت. كنت تفيق جوعان وتأكل للرجوع الى

النوم، وأملك كانت تعطيك الماء، لأنك كنت قضيت على حليبها، ما كان يكفيك شيء،

وكننت عنيفا جدا. ما فكرت قط أنك مع مرور الزمن سيطلع ذاك العنف الى رأسك... لكن هذا هو ما جرى. أمك، الله يرحمها، كانت تريد أن تكبر قويا كانت تظن أنك لما تكبر ستكون عولها. ماكان عندها غيرك. الولد الآخر الذي كانت ستلده قتها، وأنت كنت ستقتلها مرة أخرى لو كانت بقيت حية حتى هذا الوقت.

شعر أن ذاك الرجل الذي يحمله على كتفيه لم يعد يضغط ركبتيه وبدأ يرخي رجله مارجحا إياهما من جهة الى أخرى. وبدأ له أن الرأس هناك فوق يهتز كما لو كان ينشج.

أحسن أن نقطأ كبيرة كأنها دموع تسقط على شعره.
— أتبيكي يا إغنائيو ؟ ذكرى أمكم هي التي تحملكم تبكون، أليس كذلك ؟ لكنكم ما عملتم قط أي شيء من أجلها، رددتم دائما جميلنا بالشر. كأننا عوض المحبة عمرنا جسمكم بالشر. وهل ترون ؟ الآن جرحوكم. ماذا جرى لاصحابكم ؟ قتلوهم كلهم، ولكن هم ما كان عندهم أهل. هم كان يمكن أن يقولوا : «ما عندنا أحد يتأسف علينا» وأنتم يا إغنائيو ؟

القرية كانت هناك الآن، رأى السقوف تلمع تحت ضوء القمر. غمره شعور بأن ثقل ابنه كان يسحقه لما أحس أن مأبضيه كانا ينشيان في المجهود الاخير. لما وصل الى الدار الاولى، أتكأ على حطار الرصيف وأطلق الجسم الذي ارتخى كأنه فكت.

حل بصعوبة الاصابع التي كان ابنه يمسك بها عنقه، ولما غدا متخلصا منه، سمع كيف أن الكلاب تنبح في كل مكان.

— وأنت لم تكن تسمعها يا إغنائيو ؟ — قال — ما ساعدتني حتى بهذا الأمل.

ترجمة محمد العشيري

— خوان رولفو، ولد في سايولا (المكسيك) عام 1918. لم ينشر سوى عملين أدبيين : «السهل يخرق» (قصص قصيرة 1953) و «بيدرو بارامو» (رواية 1955)، ومع ذلك فإن تأثيره على كثير من كبار أدباء أميركا اللاتينية لا ينكره أحد من هؤلاء الادباء.
عن كتاب :

- EL LLANO EN LLAMAS. JUAN RULFO. FONDO DE CULTURA ECONOMICA. MEXICO

1973.